كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : د. خالد محمد ياسين

اسم المادة بالغة العربية : الكتاب القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : old book

اسم المحاضرة الرابعة باللغة العربية: خلاصة خصائص الجاحظ العامة

اسم المحاضرة الرابعة باللغة الإنكليزية : Summary of general characteristics of Al-Jahiz

خلاصة خصائص الجاحظ العامة:

عبر أحمد أمين عن علاقة أسلوب الجاحظ بشخصيته بقوله "للجاحظ أسلوب يمتاز به، ولا ينسب إلا إليه هو أسلوب الجاحظ تظهر فيه شخصيته ظهوراً تاماً حتى لتستطيع من غير كثير عناء أن تعرف أي الكتب له وأيها ليست له ومن أبرز هذه الخصائص التي تميز بها أدبه:

١- الواقعية : أدبه أدب الحياة بموضوعاته وأشخاصه وأسلوبه ينقل الأشياء كما يراها بجزيئاتها وتفاصيلها لا تصنع في ذكر العورات والحسنات.

٢- الدعاء : يستهل أكثر كتبه ومقالاته بالدعاء والتعوذ " اللهم إنا نعوذ بك ... تولاك الله بحفظه .. أعانك الله على شكره ووفقك لطاعته .." وهو يستخدم هذه الطريقة إما للتحبب وطلب الخير وإما للسخرية والتهكم كما هي الحال في مقدمة كتاب الحيوان وفي كتاب البخلاء .

٣- الاستطراد : وهو الانتقال من موضوع او من فكرة إلى أخرى دون أن يجمع بينها روابط لغة أو معنى وهذا شيء ملازم لأسلوب الجاحظ في ذلك مراعاة أهواء القارئ وإبعاد الملل عنه .

٤- السرد القصصي : عن طريق الحكايات والنوادر - ليشوق القارئ ويسهل سبل الفهم . وقد تميز هذا السرد بالقص الفني ((مقدمة - عقدة - حل)) .

٥- روح السخرية والضحك ومزج الجد بالهزل : وهذه الأجواء من خصائص اسلوب الجاحظ المميزة بجملة عوامل منها :

أ- أن الجاحظ مطبوع على الروح المرحة.

ب- خوفاً من ملل وضجر القارئ .

ت- استجابة لمتطلبات العصر الشديد التصارع؛ ديني عنصري، ثقافي ... ورأى الجاحظ أن التهكم والسخرية افضل سلاح يشهره في تلك المعارك الفكرية .

٦- اللغة : لكل مقام مقال، مراعاةً لمقتضى وللواقعية وحرية اللغة وليونتها .

أ- فالجاحظ يكره العناية البالغة بلفظ وهو ضد أصحاب الأساليب الصناعية الذين يقدمون اللفظة على المعنى وهو يدعو إلى أن تكون " الألفاظ في خدمة المعاني" .

ب- أنه يكثر من تكرار الألفاظ وترادفها وترادف العبارات على المعنى الواحد بشكل حيوي يمكنه من توضيح المعنى وترسيخ الفكرة .

- السخرية عند الجاحظ:

السخرية : الفعل منها سخر، واللغة الفصيحة سخر منه ، وبها ورد القرآن قال تعالى (الله سخر منهم) . وقال الفراء يقال سخرت منه ولا يقال سخرت به وأجاز الأخفش كلاهما ، وسخر واستسخر كعجب وتعجب واستعجب والاسم السخرية.

التهكم : تأييد رأي بما يعارضه بقصد السخرية .

الدعابة : المزاح.

الهزل : تفيض الجد وفي التنزيل (وما هو بالهزل) ، وفلان يهزل في كلامه إذا لم يكن جاداً ، نقول أجاد أنت أم هازل . والهزالة الفكاهة .

- اسباب السخرية عند الجاحظ:

إن سخرية الجاحظ في الغالب تصدر عن نفس مرحة متفائلة بالحياة وطبيعة لا تعرف الحقد واللؤم ومزاج يميل إلى الاعتدال، فيخلط الجد بالهزل، ويتوسط بين متطرفين التقصير والإفراط على سنة

صاحب المنطق، والمعتزلة قال الجاحظ: (وللضحك موضع وله مقدار فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر) .

وسخرية الجاحظ ليست مظهرا من مظاهر النزعة الفنية أو الروح النقدية في أدبه فحسب بل هي طبيعته التي ركب فيها حب الضحك والميل إلى نقد العيوب بابتسامة مرحة وتهكم مرير يعتمد التصوير الحسي حيناً والتوكأ على النادرة والمعنى الفلسفي والديني أو الصورة الأدبية فهو يبرز مهجويه في صور كاريكاتورية مضحكة ، وألفاظ ظاهرها مديح، وباطنها هجاء واستهزاء .

وبرزت روحه الساخرة في كل كتبه ورسائله فقلما يخلو كتاب له حتى ما كان منها ذو موضوع علمي من نادرة تروى او طرفة تحكى ونكتة تلقي الكلام على عواهئه فتنشط القارئ وتذهب بمله وسأمه.

ولم تقتصر فكاهة الجاحظ ودعابته وسخريته على أصحاب الفرق الإسلامية وغير الإسلامية، والأساطير والخرافات، والمعتقدات الفاسدة وبما أنها طبع فيه وأداة للردع والإصلاح واللجم الاجتماعي، فقد شملت العباسي في شتى حقوله الأخلاقية والدينية والسياسية. لقد طبع الجاحظ على الفكاهة فلم يتكلفها تكلفاً ولم يتعمدها تعمدا، ولذلك لم يستطع أن يمنع نفسه منها فتدفعه إلى إرسال نكتة هنا ورواية وتوجيه نقد هناك كلما لقي شيئا لا يعجبه او منظراً بشعاً أو رأياً موغلا في الخطأ وقد يسخر من نفسه ، وكان هذا دابه مهما كان الموضوع الذي يعالج علمياً أو فكرياً يحتاج إلى الرصانة والجد. أن سخرية الجاحظ لطيفة خفيفة غير جارحة أو ثقيلة يقبلها الإنسان ولا يمجها الذوق الفني أو الاجتماعي.

إن من يقرأ كتاب البخلاء لا يتمالك نفسه من الضحك وهو يسمع نوادره الطريقة واخباره العجيبة وكذلك يتصفح رسالة (التربيع والتدوير) يبقى في ضحك متواصل من هيئة أحمد بن عبد الوهاب المربع المدور المدعي للعلم والذي لا يستطيع رغم ادعائه أن يجيب على سؤال من أسئلة الجاحظ المئة التي يطرحها عليه.

ويحاول الجاحظ أن يفلسف مذهبه في الدعابة والهزل فيزعم أن الضحك نافع للجسم والنفس وهو أفضل من الكآبة والبكاء اللذين يوهنان العزائم ويميتان النفوس . وهناك مبرر آخر للهزل يذكره الجاحظ هو طرد السأم عن القارئ الذي يضجر بزعمه إذا طال عليه الجد.

وهذا الرأي يؤكد ما فطر عليه الجاحظ من فكاهة وسخرية ودعابة. لقد كانت سخريته لطيفة فعلاً حين تناول الدجالين من الأطباء الذين يهللون لانتشار الأوبئة والأمراض حتى تنفتح أمامهم أبواب الرزق والمشعوذين، وبلاغة أصحاب الصناعات ومفاخرة الغلمان والجواري، والمنجمين والقصاص الذين كانوا يتصدون لتفسير القرآن والحديث فيكيفون الأمر حسب رغباتهم ليعظم سلطانهم عند العامة .

ولكن هذه السخرية اللطيفة لا تلبث أن تتحول أحياناً إلى سخرية لازمة وتهكم مرير فيبرز بشكل ساخر حيناً ومبطن حيناً آخر في أقواله وأخباره ونوادره عن الشعوبيين وبخلائهم وكتاب الدواوين ومن المعروف أن أبا عثمان هاجم الشعوبية مراراً وحذرهم من مغبة تحرشهم بالعرب وهو في دفاعه عن العرب وسخريته بالشعوبيين ينطلق من إدراكه العميق لدور العرب في خدمة الثقافة الإنسانية فقد أحاطوا بها ومكنوا لها في الأرض، وسارعوا إلى رعايتها والعناية بالمشتغلين على نقلها إلى العربية، وليس ما عربوه من آثار الشعوب المختلفة سوى شاهد بسيط على عظمة هذه الأمة.

تلك صورة موجزة لمعالم السخرية في أدب الجاحظ وهي ظاهرة لم تكن وليدة قبح الرجل وعيوبه الجسدية ولتن سخر من دمامته وقصره وسارع إلى التشهير بنفسه وتعرية هذه العيوب قبل أن يسبقه الناس إلى ذلك فقال : (ما أخجلتني الا امرأتان رأيت احداهما في العسكر وكانت طويلة القامة وكنت على طعام فاردت ان امازحها فقلت لها انزلي كلي معنا، فقالت اصعد أنت حتى ترى الدنيا).

أما الأخرى (أتتني امرأة وأنا على باب داري فقالت لي أليك حاجة وأريد ان تمشي معي فقمت معها إلى أن أتت إلى صائغ يهودي وقالت له مثل هذا. وانصرفت.

فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت لي بفص وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان فقلت لها يا ستي ما رأيت الشيطان فأتت بك).

وخلاصة القول أن السخرية قد وسمت آراء الجاحظ النقدية واتجاهاته الفكرية بمنهج خاص في الكتابة وهو في كل ذلك الأديب الساخر المتمكن من اللغة وبيانها والناقد الخفيف الظل والمحدث اللبق والعالم الخبير بالطباع ومواطن الضعف والقوة في نفوس البشر.

وهكذا كانت السخرية طبعاً فيه فتنبه إلى أثر الطبائع التي فطر عليها الناس في سلوكهم وألوان حياتهم وقادته بعد أن عاين ميله الطبيعي إليها في حركاته وسكناته بشكل تجريبي إلى نظرية في المعرفة خالف فيها مفكري عصره من علماء الكلام وعلى هذا الأساس فالمعرفة عنده طبع والبخل طبع وكذلك الكرم والجين والفكاهة والتهكم والسخرية وكل ما يتصل بالإنسان والعالم من فطرة وعقل وسنن وقوانين.